مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (4)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (4) 2018

تحولات الرّؤيا الشّعرية القلقة عند الشّاعر محمود درويش بين عامي 1964-1984م

الدكتور فاخر ميّا*
ريتا قيصر بطرس**

(تاريخ الإيداع 10 / 6 / 2018. قبل للنشر في 26 / 8 / 2018)

□ ملخّص □

لقد طوّر محمود درويش طريقته الشّعريّة بين عامي 1964-1984،فابتكر لغة وأسلوباً خاصّاً به اتّسم بصفة القلق، وعدم الارتياح بسبب وضعه في بلده المحتل، فكان شعره لوحة فنيّة مزج فيها بين الشّعر والنّثر، وجمع بين الغموض والوضوح، والصّعوبة والسّهولة، وكانت لغته الشّعريّة عذبة مملوءة بالصّور الجميلة، والإيقاع الموسيقيّ المبتكر، وقد استخدم الرّمز للتّعبير عمّا في داخله من قلق ،وألم، فجاءت تجربته مثالاً صادقاً عن حالته النّفسيّة القلقة، وقد دعا بوضوح إلى وظيفة فنيّة وإنسانيّة للشّعر تجعل جماله الفنيّ في خدمة الإنسان، وتجاربه ، وقضاياه الكبيرة، ولا تقف حدودها عند الجمال الخارجي فقط ؛ بل تتعداه ،وممّا لاشكّ فيه أنّ الثّقافة الأدبيّة الأولى لمحمود درويش مستمدّة من الوسط الأدبي العربيّ الّذي يعيش فيه داخل وطنه فلسطين، وهذا ما جعل رؤيته الشّعرية تتّصف بالقلق، وعدم الاستقرار.

الكلمات المفتاحيّة: تحولات، الشعريّة، محمود درويش.

*أستاذ في قسم اللغة العربيّة، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
** طالبة ماجستير في قسم اللغة العربيّة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (4)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (4) 2018

Transformations of the poeticworried vision of poet Mahmoud Darwish Between 1964-1984

Dr.Fakher Maya*
Rita Kaisar Boutros**

(Received 10 / 6 / 2018. Accepted 26 / 8 / 2018)

□ ABSTRACT □

Mahmoud Darwish developed in his poetic style between 1964-1984, and he devised a language and his own style .

As a matter of concern and uneasiness due to his situation in his occupied country, his poetry was a painting in which he combined poetry and prose.

Combining mystery, clarity, difficulty and ease, his poetic language was fresh and full of beautiful pictures and rhythm .

The innovative musician, who used the symbol to express his anxiety and pain, came up with an honest example of his condition .

And has clearly called for a professional and humane function of poetry that makes his artistic beauty in the service of man, his experiences .

And its big issues, and not only borders on the outer beauty, but beyond, and there is no doubt that the first literary culture .

To Mahmoud Darwish derived from the literary Arab in which the poet lives in his homeland Palestine, and this is what made.

His poetic vision is concerned and unstable.

Keywords: Transitions, poetics, Mahmoud Darwish .

***-Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria**

****Postgraduate Student, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

يعدّ الشّاعر محمود درويش من كبار الشّعراء الّذين عبّروا في شعرهم عن حياتهم بأدقّ تفاصيلها. فكانت تجربتهم الشّعرية، مثالاً صادقاً عن الحبّ، والحياة.

ونلاحظ عموماً أنّ اسم محمود درويش يرتبط بلفظة (الغياب)، فقد كان شاعر الغياب، والمنفى، لما كابده من حزن على وطنه الجريح، وخصوصاً عندما كان في بلاد الغربة، والنفي. ويعدّ القلق في شعر محمود درويش بين عامي1964–1984 سمة بارزة ، ومهمّة، وهذا ما جعلني أختار هذا الموضوع، وأريد من خلال هذا البحث.

الإجابة عن الأسئلة المهمّة التي دفعتني لاختياره:

– ما دوافع القلق البارزة في شعر محمود درويش؟

– ما أنواع القلق و مظاهره عند الشّاعر؟

– ما الأثر الجماليّ الشّعري للقلق في شعره من ناحيتي الشّكل والمضمون، وكيف أثّر القلق في اختيار المفردات الشّعريّة، وصوغ الجمل؟

– ما أثر القلق في تشكيل الصّورة الشّعريّة عنده؟ وكيف أسهم في بروزها عبر التّقانات البلاغية الّتي أكثر منها المحدثون؟

– كيف أثّر القلق في موسيقا الشّعر لدى محمود درويش سواء أكانت الموسيقا داخليّة أم خارجيّة؟

ومن هنا تأتي أهميّة هذا الموضوع ، لأنّه يغني معرفتنا بالشّاعر محمود درويش ، ويجعلنا نكتشف أنّ إنتاج الأدب عند محمود درويش بين عامي 1964–1984م هو الّذي يكسب القلق جمالاً، فالقلق الّذي يعيشه الشّاعر هو منبع من منابع إبداعه.

وعلى أساس ذلك ستقوم الدّراسة اعتمادا على مؤلفات الشّاعر ، وقد تبدّت الذّات الشّاعرة المضطربة، والمتنقّلة بين إيديولوجيّات، واتجاهات سياسيّة، وشعريّة، وتجارب اجتماعيّة.. تبدّت آثارها على أشكال عدّة منها: الغربة، وقلق المصير، وقلق التّأثير.

لقد أفرز القلق عند محمود درويش مخلّفات نفسيّة، وجسميّة، وحالة إبداعيّة مختبريّة ليمتزج النّفسيّ بالفنّيّ، والسّعي لالتقاط الآثار الفنّيّة للقلق عند الشّاعر.

أمّا الدّراسات الّتي تناولت تجربة الشّاعر محمود درويش فنذكر منها:

– أشعار محمود درويش، دراسة وإعداد: إسلام إبراهيم.

– التّوراتيات في شعر محمود درويش من المقاومة إلى التّسوية، أحمد أشقر.

– الغربة في شعر محمود درويش(1972–1982م)، أو فترة الإقامة في بيروت، أحمد محمود جواد مغنية.

– قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش، إعداد وتقديم: الشّاعر محمد الزينو سلوم.

– قضيّة الأرض في شعر محمود درويش، عبد الكريم حسن.

– قضية الالتزام في شعر محمود درويش ،رسالة ماجستير، إعداد :خيرة عطافن– حسيبة قصور، إشراف الدّكتورة: ليلى مهدان.

إنّ مشكلة البحث تكمن في تداخل الظّواهر النّفسيّة فيما بينها، وتشابك آثارها، وتبعا لذلك فقد يتداخل القلق مع الخوف– بوصفهما ظاهرتين مختلفتين– كما تتداخل آثارهما، فضلاً عن تداخل القلق بظواهر أخرى مثل: التشاؤم واليأس، ممّا يصعب عمليّة الفرز بين الظّواهر النّفسيّة ، خصوصا تلك الموارد الّتي لم يذكر فيها لفظ (القلق) مباشرة

في النّصّ، والّتي سأحاول استنباطها من خلال التّحليل...أمّا المنهج المتبع فهو :المنهج النفسي وهو المنهج الذي يربط بين العمل الأدبي، ونفسيّة صاحبه ، وبيان ما عاناه من مواقف أثّرت في توجه مزاجه، وسوف نفيد أيضا من معطيات علم الاجتماع الّذي يدعو إلى اتصال الأدب بالحياة، وينادي بمشاركة الأديب في قضايا مجتمعه، ويسعى إلى رقيه وتقدمه.

"يعدّ الشاعر محمود درويش "أحد أبرز من ساهم بتطوير الشّعر العربي الحديث ،وإدخال الرّمزيّة فيه. في شعر محمود درويش يمتزج الحب بالوطن، بالحبيبة الأنثى. قام بكتابة وثيقة إعلان الاستقلال الفلسطينيّ الّتي تمّ إعلانها في الجزائر." [1] وقد استطاع أن يلوّن تجربته بذائقة شعرية قلقة ،تميّزت بالعديد من الصّور الجديدة التّي أضفت على شعره تحوّلاً في الرؤيا الشّعريّة يمكن أن نسميه(تحولات الرّويا الشّعرية القلقة).

"فمحمود درويش حاضر الوجود دائماً من خلال شعره، ولأنّ الكلمات بحسب تعبير برس بارين(Brice Barain) مسدسات عامرة بقذائفها، فإذا تكلّم الكاتب فإنّما يصوّب قذائفه ، في مكنته الصّمت، ولكنّه إذا اختار أن يصوّب فيجب أن يكون له تصويب رجل يرمي إلى أهداف، لا تصويب طفل على سبيل الصّدفة، مغمض العينين، ومن دون غرض سوى السّرور بسماع الدّوي " . [2]

"يقول الشّاعر محمود درويش عن ديوانه أوراق الزّيتون الصّادر عام 1964م إنه البداية وفيه انتقل من مرحلة الحزن والشّكوى إلى مرحلة الغضب والتّحدي" [3] من مرحلة اللامبالاة إلى مرحلة المبالاة والانتفاضة، والنقمة لا على أعداء قضية وطنه فحسب بل على قضية شعوب كثيرة عانت المعاناة نفسها التي عاشها وطنه" ومن ثمة انتقل من الثّوري الحالم إلى الثّوري، والتحام الخاص بالعام. وقد حاز على رضا القراء والنقاد والشعراء.

بعده جاء ديوان(عاشق من فلسطين) الصّادر عام 1966م، وكان صوت الشّاعر أقل نبرة، وأكثر انخفاضاً، وهمساً، وشفافيّة. تخلّص من شرح تفاصيل الصّورة واكتفى بالإشارة الموحية. وأكثر قصائد الدّيوان كتبت في السّجن؛ ولهذا كانت قصيرة ومكثفة وتحتوي على فراغ جميل ذي إيحاء... ممّا أسفر عن إنزال ضربة غير مقصودة ببناء القصيدة الكلاسيكيّة. " [4] وكانت نقلة نوعية عبّر فيها عن تحولات القصيدة الممزوجة بقلق شاعر لم يكن راضياً عن مكانه في ظروف وأوضاع لم تكن غامضة أسفرت عن بروز مضاعفات في بناء هيكل القصيدة القديمة.

أمّا ديوان (آخر اللّيل) فقد حصل على شهرة كبيرة، ونلاحظ فيه تطوراً فنيّاً كبيراً على المستويين الدّلالي، والإيحائي، وكانت مفرداته دقيقة في التعبير عن المعنى المراد إيصاله إلى الجماهير وخصوصاً بعد تكوّن جمهور من القراء أحبّوا الشاعر وأحسّوا بين طيّات كتاباته دفاعاً عن قضيتهم بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

"وصار الرّمز عند الشّاعر أغنى بالكثافة، وإن كان الجوّ العامّ شفافاً، واستطاع الشّاعر أن يحقّق الصّداقة أو التّوافق بين الحلم والواقع، بين سبب الرّمز ومدلوله، وتلقائيّة العلاقة بين الفكر والوجدان، وفي الحوار القاسي، أو الصّراع بين الموت والحياة، فانتصرت الحياة." [5]

ومن المؤكد انتصار الحياة لأنّ الشاعر مؤمنٌ بقضيته إيماناً من الصعب الشكّ في أسبابه.

---

1 - إبراهيم، إسلام، أشعار محمود درويش (د.ط)، فاروس للنشر والتوزيع،القاهرة)،(د. ت)، ص7.

2 - هلال، محمد غنيمي، ما الأدب؟ لجان بول سارتر،(د.ط)، دار العودة، بيروت،1984م، ص19.

3 - سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش،(د.ط)،دار الرّضوان،حلب،2008م، ص10.

4- المرجع السّابق، ص10 -11.

1-سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش، ص11.

"استُقبل (آخر اللّيل)بفتور من قبل القراء بسبب الرّمز، ممّا دعا الشّاعر إلى إعادة النّظر من جديد بالتّوفيق ما بين الكلمة الجماهيريّة ومتطلبات الشّروط الفنيّة، ومن أهمها(الرّمز)." [1] فالرمز على أهميته يحتاج إلى شريحة من المجتمع تكون على مستوى واسع من الثقافة لتعرف المقصود منه ومن أبعاده على الصعيدين النفسي والاجتماعي.

وقد "تعرّض الشّاعر عدّة مرّات للتّوقيف والسّجن؛ بسبب بعض القصائد الّتي كان يلقيها في بعض احتفالات المدرسة ومهرجاناتها، الّتي تأخذ في أغلب الأحيان الطّابع الوطنيّ، وتتعرّض للحكم الإسرائيلي. ويعترف الشّاعر أنّ نتائج حرب حزيران عام 1967م كان لها نتائج جارحة على نفسه."[2]

ومن هذه الظّروف تولّد القلق في نفس الشاعر ونفسيته ،الأمر الذي انعكس على قصائده، فتحولّت الرؤيا الشعرية عنده إلى قلق على المصير، وقلق على الواقع وقلق على الوجود عامّةً.

"فالأدب مسؤول عن الحرية، وعن الاستعمار، وعن التّطوّر، وكذلك عن التّخلّف، فالأديب ابن بيئته والناطق باسمها، فعليه تحديد الهدف جيداً" [3] وكان الشّاعر محمود درويش ابن البيئة الّتي كتب عنها، وصوّر قضيتها، ومشكلتها بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة.

"أمّا فيما يتعلّق بديوان(العصافير تموت في الجليل)،فقد استمرّ القرّاء والنّقّاد في صبّ اللّوم على الشّاعر؛ لاعتقادهم أنّه انتقل من الواقعيّة إلى الرّمزيّة.. لكنّ الحقيقة غير ذلك، فالشّعر الحديث يجعل القصيدة لا تستسلم للقارئ من أول لقاء، لأنّها أكثر تعقيداً وتركيباً وتشكيلاً من القصيدة الكلاسيكيّة." [4]

الأمر الذي جعل الشاعر قلقا أيضا من تقبّل القراء لقصائده التي لطالما كتبها من أجلهم ولأجلهم بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

يقول الشاعر:"**أيها الأصدقاء.. يصعب هنا وضع الفواصل بين الأدب والسياسة وأنا كاتب لا يتفرج على الحياة بل يلتحم بها.. وأنا مواطن عالمي وقضيتي جزء من الحركة الثورية العالمية، وأفخر بانتمائي إلى أسرة التقدم والتحرير والاشتراكية التي تمارس تأثيرها الفعال لتغير العالم تغيرًا جذريًا. وأنا مواطن عربي، وقضيتي الخاصة جزء لا يتجزأ من القضية العامة للشعوب العربية.**" [5]

فقد أراد من قصائده أن تغير الواقع وتثور عليه، وكان هذا هدف الشعر منذ أقدم العصور عن طريق توعية أفراد المجتمع وتثقيفهم ليشاركوا في نهوض مجتمعهم والنهوض على كلّ مستعمر ومستغل يريد سلب حقوقهم وأرضهم."بعد هذا دخلت تجربة الشّاعر في حالات أكثر فنية من تطوير وتجديد ورمزيّة، وللشّاعر العديد من المجموعات الشّعرية الجديدة مثل مديح الظّلّ العالي، وحصار لمدائح البحر و.....ومن الجدير ذكره أن أكثر دواوين الشّاعر تكرّر طبعها عدّة مرّات ." [6]

فقد تحولت الرؤيا الشعرية القلقة إلى شكل يتسم بالنضوج الأكبر ،وهذا ما جعل القراء في هذه المرحلة يتقبّلون الرمز والإيحاء؛ لأنّهم أصبحوا أكثر وعيا بأفكار الشاعر وآماله بعد توسعّهم بأشعاره السابقة.

---

1 - المرجع السّابق، ص1.

2- المرجع السّابق، ص11 – 12.

3 - عطافن، خيرة– قصور، حسيبة، قضية الالتزام في شعر محمود درويش ،رسالة لنيل درجة الماجستير، إشراف الدّكتورة: ليلى مهدان، كلية الآداب قسم اللغة العربية، جامعة الجيلاني،الجزائر،2015–2016 م. ص7.

4 - سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش، ص12.

5 - النقاش، رجاء، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ،ط2، دار الهلال،مصر ، 1969م،ص270–271–272.

6 - سلوم،محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش ، ص13.

"وهذا التطور في قصيدة درويش، وفي لغته، لا يحتاج إلى شواهد، ولا يحتاج إلى كشف فهو واضح جلي لكل من يقرأ أشعاره، وهذا التطور هو مسافة الحرية بين الشاعر والكلمة والإشارة من صورة أو رمز، إنه حركية العلاقة بين المبدِع والمبدَع، هذه الحرية تجعل كل متحقق منطلقًا وهدفًا لإعادة النظر، وتجعل الإبداع البشري صيرورة دائمة." [1]

"وإنّ كلّ ما صدر للشّاعر مؤخرا جدير بالقراءة والتّمحيص لمعرفة التطوير والتجديد الذي طرأ على شعره وتجربته الطّويلة. وفيما يتعلّق بلجوء الشّاعر إلى الرّمزيّة غير المباشرة، إنّما هو أمر مشروع بعد أن كادت المباشرة في بداية تجربته تودي به، وقد ألقت به في السّجن مرارا...وإذا كانت الرّمزيّة يلجأ إليها كثير من الشّعراء في عصرنا الحديث في ظلّ الأمان الّذي يعيشونه في أوطانهم، فكيف بحال الشّاعر الّذي يعيش في وطن محتل من قبل إسرائيل." [2]

وهذا الأمر أيضا جعل قراء الشاعر يتقبلون الرمز بشكل أكبر لأنهم أحسّوا بمدى الخطورة على الشاعر إذا لم يستعمل الرمز في قصائده، مما جعل الناس في تلك المرحلة يتعمّقون الثقافة ليثقفوا أنفسهم ويفهموا المعاني البعيدة التي يقصدها الشاعر من شعره. وبذلك حقق الشاعر محمود درويش بتجربته الشعرية على قلقها الهدف المنشود، وهو توعية الشعب وأفراده.

" وعليه فقد لجأ الشّاعر إلى الرمزيّة للتخلص من عين الحكومة الإسرائيليّة والابتعاد عن الصّدام المباشر معها من جهة، ومن جهة أخرى فقد لجأ إلى الفنيّة والتي منها الرّمزيّة سواء الشّفافة أو الضّبابيّة أو حتّى المغرقة في الغموض، حاله حال كثير من الشعراء المعاصرين." [3]

وهذه الرمزية أعطت شعره عمقاً وبعداً اتّسم بقلق وجودي ليس فقط على الصّعيد الشّخصيّ فحسب، بل على الصّعيد الاجتماعي والسّياسي أيضا.

"وإذا كان الشّاعر نزار قباني شاعر الجماهير في الحاضر ،فإنّ الشّاعر محمود درويش سيكون شاعر الجماهير في المستقبل وستذكره الأجيال القادمة بكل الحبّ والاحترام..." [4] لما في شعره من إغراق وتعمّق في مستقبل الجماهير الجماهير وواقعها المعيشي والنفسي، فقد انتقل محمود درويش من كونه شاعراً إلى كونه محلّلا نفسيا.

فمحمود درويش يساير العصر بكل تقنياته العلميّة، والتّكنولوجيّة، لأنّه يدرك أهميّة التّكنولوجيا في نقل الأفكار وتقريب المسافات في العالم كلّه، فلا معنى لفكرة العالميّة إن لم ترتفع بالفنّ الّذي يخاطب الإنسان العالميّ [5] الّذي يتماشى مع روح العصر، ويحاكي ثقافته الاجتماعيّة والاقتصاديّة والفكريّة.

وهذا ما جعل شعر الشاعر محمود درويش يكتسب صفة العالميّة الّتي تنفتح على آفاق واسعة، وتصل إلى الشّعب بصورة واضحة وصادقة ، ولقد اتّسم هذا الشعر بقلق المصير، وقلق التأثير.

"يحلم بالزّنابق البيضاء
بغصن زيتون

---

1 - سعيد،خالدة، *حركيّة الإبداع* ، ط2، دار العودة، بيروت ، 1984 م، ص 12.

2- سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش، ص13-14.

3. سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش ، ص14.

4- المرجع السّابق، ص14.

5 - [بتصرف] إسماعيل، عز الدّين، *الشعر في إطار العصر الثوري* ،ط1، دار القلم، بيروت ، 1974م، ص14.

بصدرها المورق في المساء
يحلم ــ قال لي ــ بطائر
بزهر ليمون
ولم يفلسف حلمه، لم يفهم الأشياء
إلّا كما يحسّها..يشمّها"[1]

فقد كان الشّاعر محمود درويش يعيش ويحلم، وفي الوقت نفسه يقلق ويحسّ بالضياع والتّشتّت؛ لأنّه في قرارة نفسه يعرف أنّ حلمه صعب جدا، إلى درجة المستحيل:

"أموت اشتياقاً
أموت احتراقاً
وشنقاً أموت
وذبحاً أموت
ولكنّني لا أقول
مضى حبنا، وانقضى
حبنا لا يموت"[2]

لقد كان محمود درويش يحبّ الخير، ويسعى للسّلام، ولكنّ وطنه مشتعل بنار الحقد والحرب، لذلك كان دائم القلق على مصير بلاده الحبيبة:

"إنّني أحلم بالزنابق البيضاء
بشارع مغرّد ومنزل مضاء
أريد قلباً طيّباً، لا حشو بندقية
أريد يوماً مشمساً، لا لحظة انتصار
مجنونةً..فاشيّه
أريد طفلاً باسما يضحك للنّهار
لا قطعة في الآلة الحربية
جثت لأحيا مطلع الشّموس
لا مغربها"[3]

"ارتبطت قصيدة درويش، في مرحلتها الأولى، بتفتح وعيه على الكلمة إذا كانت قصيدة ناشئة تتخير الشكل الأمثل لتتبلور فيه، هذه المرحلة عاش فيها درويش في الأرض المحتلة، وقد عانى مرارة وجوده في حالة حصار دائمة، فنشأ وقد تجاذبته قضيتان، لن تفترقا في المستقبل، الشعر والوطن، لذلك شكّلت الغنائية أساس شعريته الأولى، فهي أي

1 - درويش، محمود، ديوان آخر اللّيل، ط13، دار العودة، بيروت، 1993م، ص33.
2. درويش، محمود، ديوان آخر اللّيل، ص16.
3- المرجع السّابق، ص38

الغنائية اندمجت في تلك المرحلة مع رومانسية معذبة لم يتح لها أن تأخذ مداها بوجود عامل الوعي الاجتماعي والقومي حين أطلَّ درويش، وهو شاب، على المشهد المعقد في ظل الاحتلال." [1]

" وكانت قضية الشعر تأخذ مسار التعبير المباشر، ورفض القديم على الرّغم من تأثره بأشكاله، وذلك لإيمانه بضرورة وجود أسلوب، وشكل جديد خاص، ففي زمن المعادن، والآلة، والبترول، والمصارف، وإيديولوجيات العنف والحذاء العسكري، أصبح الشعر نبيًا مفقودًا. وكما أنّ الأنبياء يخاطبون العامّة بلغتهم البسيطة المباشرة، كذلك لغة القصيدة يجب أن تكون بسيطة يفهمها عامّة النّاس. فقصيدته مرتبطة بهمٍّ وطني ثوري، فهو إذاً شاعر لا يطمح إلى دور النبوة، ولا إلى اصطناع ثورة قومية منعزلة. إنه يربط ثورته الشعرية بثورة شعبه" [2]

"لذلك فإنه غاية ما يريده، هو الوضوح، فالقصيدة التي تحمل على الثورة، يجب أن تكون المباشرة، أهم وسائل تعبيرها، لأن أي أثر أدبي تقدمي، في أي أشكال التعبير الفني تجلى به، لا يستطيع أن يؤدي دورًا مهمًا في معركة المصير العربي، إذا لم يصل إلى وعي الجمهور. ذلك لأن الجمهور هو السلاح الحاسم في معركة المصير هذه." [3]

فالقصيدة يجب أن تحمل مضمونًا ثوريًا واضحًا؛ هي لغة البسطاء من الناس، يقول درويش:

"قصائدنا بلا لون بلا طعم بلا صوتِ

إذا لم تحمل المصباح من بيت إلى بيت

وإن لم يفهم البسطا معانيها فأولى أن نذريها

ونخلد نحن للصمت " [4]

كتب محمود درويش القصيدة في سجن العدو فأجاد، وكتب في الفضاء الرحب مع الأحرار فتفوّق، وكتبها مبدعا ومتفوقا بالأرض المحتلة تحت ظلّ الاحتلال البغيض.. فاستطاع أن يوصل رسالته شعرا إلى الجماهير بطريقة مميّزة يُشهد لها، لقد كانت النّقلة التي أحدثها محمود درويش في الشعر تحمل ما تحمل من الجدّة والقلق في الوقت نفسه.

"فسهل أن تكتب شعر مقاومة.. وصعب أن تكتب شعر مقاومة يختلف عن المنشورات. وسهل أن تكتب الشعر الحديث.. وصعب أن تكتب الشعر الحديث بقلم الأصالة وحبر التراث. وسهل أن تجتذب الجمهور. وصعب أن تجتذب الجمهور بشعر يرقى بالجمهور إلى آفاق جديدة." [5]

نعم هذا ما كان يشعر به محمود درويش وهذا الذي جعله يقلق في التعبير عن تجربته الشعرية الفريدة من نوعها، وهذا ما يسمّى السهل الممتنع بالمعنى الدقيق للكلمة.

"لقد أعطى محمود درويش شعر المقاومة طعما مختلفا، وأعطى الشعر الحديث طعما جديدا، وجذب الجمهور بأسلوب غريب جدا.. ليس في شعر محمود درويش تشنجات.. ولا عنترات ولا شعارات.. ليس في شعر محمود درويش سوى الشعر.." [6]

---

1 - صالح، إبراهيم الحاج، *محمود درويش بين الزعتر والصبار*،ط1،منشورات وزارة الثقافة، دمشق ، 1999م، ص 3.

2 - دكروب، محمد، الأدب الجديد والثورة ، ط1، دار الفارابي، بيروت ، 1980م،ص 105.

3- المرجع السّابق، ص 64.

4- درويش، محمود، الأعمال الكاملة للشاعر محمود درويش، *ديوان أوراق الزيتون*، ط10، دار العودة، بيروت، ج1، 1983م، ص55.

5 سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش، ص28 .

6 . سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش، ص28–29.

ويمكن أن نقول :إن شعر محمود درويش كان شعراً يحمل قضية الجماهير، فقي حبّه كان يعيش القضية وفي يأسه كان يعيش الثورة، وفي قلقه كان يوجد قصة حياة...

يقول محمود درويش: "إنّ تطوري الشعري تمّ من خلال التراكم ، وليس من خلال القفز في الفراغ ومن التراكم أصبحت قصيدة محمود درويش أكثر دراميّة ، وأكثر تعقيدا وهي تنتقل من حالتها البسيطة إلى الحالة المركبة، ومن المونولوج إلى الديالوج؛ إذ يخرج بين الملايين الذين يحتلون قلب الشاعر في قصيدته الأولى محاورون كثر يتصدون المشهد الشعري ، وليس نادرا ما يكون محاور الشاعر هو قرين له يتسم بالدهاء ويخوض معه لعبة الزمن والموت والمكابدة مع اللغة التي يبذل الشاعر جهودا مضنية لتملكها وتطويعها والإمساك بالوجود الهارب..

وظلّ محمود درويش طيلة هذه الرحلة من البسيط إلى المركب يبحث عن أقصى توتّر للتجربة، والعنف الحسيّ الذي يعانق الصوفي، وبقيت الحداثة المتجددة أبدا تمردا مدهشا، وفعالية لم تقطعها أبدا عن الماضي وعن منابعه الوطنية وتراث أمته، فيتزاوج المونولوج وصوت الفرد يحدّث نفسه، والمونتاج حيث تعاقب الصور وتواشجها وتفاعلها، والتّناص والتضمين، واعتماد الرموز والكنايات والصور واستدعاء الأساطير، وحيث القصائد مشحونة بغضب وجودي يتجادل مع عالم يتقوّض، وما من يقين هناك إن كان الذي سينهض مكانه عالم من السرور، وحيث القلق الأبدي، والدنيا الموحشة المفتوحة على الجنون هل في وسعنا أن نغيّر حتمية الهاوية، وإذ يصعب تعيين مكان الصوت المفرد– الإنسان الشاعر في هذا العالم الملتبس." [1]

يجب علينا أن ندرس قلق محمود درويش الدائم من الحياة ومن الموت، قلقه من المصير عامّةً، فهو لم يكن شاعرا وحسب، لقد كان موسوعة نفسية ووجودية وفلسفية لم يوجد لها مثيل في العالم العربي.

"ومحمود درويش في عالم الشعر لا يشهد له، بل يستشهد به ،وهو من دون شك ليس وحيدا مفردا، غير أن شعره فرادة فذّة قصيدة بعد قصيدة، وعاما بعد عام كان يبني لنا وفينا صرح الشعر العربي الحديث، يشيد ذائقتنا للشعر وينهض بها، ويعمّقها، ويفسح في المجال أمامها لتستكشف بؤر الجمال، مواطن الأسرار، دلالات المعنى، وإشارات الطرق الشعرية ورموزها التي لا تنتهي ، بل تكون في ذاتها الممتعة، وزوادة الحياة في آن." [2]

و"محمود درويش هو ثمرة للجهد الدؤوب والعنيد على أدواته الشعرية ،وكذلك للموهبة التي أفاد منها إلى الحد الأقصى ، وعرف بإدراك عميق وعقل نقدي كيف يقيم طقوس الشعر من دون أن يقدّم الأضاحي على مذبحه، سواء من تقليص مساحة القراء أو تخفيض الفن هل لأنه ولد بالتقسيط –على حد تعبيره في حوار معه تمكّن مرحلة بعد أخرى بالتنامي المستمر لقرائه؟ هل لأنه فلسطيني ارتبط اسمه بقضية كبيرة الوزن وبالغة الحساسية؟ هل لأن الإعلام العربي أفرد له ما لم يفرده لغيره من المتابعة والتقصي ؟هل لأن النقد خصّه بالاهتمام البالغ وحيث تجربته الشعرية؟" [3]

فكان قلق الشاعر كبيراً من المجهول الذي سيتوصل إليه وطنه ،ولم يكن هذا فحسب، بل كان شديد الحرص على انتقاء مفرداته القلقة بحذر شديد، ليقول للعالم: إن تجربته الشعرية فريدة من نوعها لم يتوصل إليها شاعر قبله ممزوجة بالقلق الوجدي، والوعي الثوري.

1- المرجع السّابق،ص60-62.

2 -المرجع السّابق، ص.100 .

3- سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش، ص100 – 101 .

"عبثا سنقف عند سبب بعينه وعبثا سنضم الأسباب مجتمعة، فمحمود درويش كما كل المبدعين الكبار في العالم بأسره ، فرادة فذّة سنظل فخار في أسبابها وعواملها ومعطياتها، أفهل تحتاج موهبة محمود درويش الشعرية الخلاقة هذه أن يشهد لها ،أم يكفي أن نستشهد بها معترفين بما وفّرته لنا متعة في الفنّ، ومعنى في الحياة؟" [1]

وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نعترف بأنّ تجربته الشعرية يشهد لها ويستشهد بها في الآن نفسه، ليس لأنه شاعر قضية وشعب، بل لأنه شاعر الإنسانية جمعاء بالمعنى الدقيق للكلمة. "ويتجاوز محمود درويش في ذاكرة المكان والزمان والأشخاص مجرد التجربة الشعرية التي تعرّف بمجانية الأسماء، الثورة والمقاومة والتمرّد، تتجاوز تجربته الشعرية التقويم الماضوي له بشاعر القضية وشعر القضية والذي أدرك درويش خطورة تحجيمه بشاعر داخل ذلك التقويم، وتظليل تجربته الشعرية بخلفية تاريخية تسلب حقوق تلك التجربة ألوان الحياة خارج علاقة البداية والنهاية بمفهومها الغائيّ." [2]

فهو شاعر حيّ ينبض بالحياة على الرّغم من قلقه، يهوى الأمل والحياة ويسعى ليحقق من خلال شعره نصراً غائيّاً لا نهاية له.

"وقد أدرك هذا المأزق التقويمي له بوصفه شاعراً ولتجربته الشعرية،بوصفها معطى سلفا في تكوين جوهر تقويم تجربته الشعرية، ولذلك رفض جوهر ذلك التقويم" [3]

فقد كان الشّاعر محمود درويش يبحر بشعره إلى آفاق بعيدة تشتمل معانٍ غزيرة وصور خلّاقة، و" ما يميز تجربة محمود درويش الشعرية أنها تشمل كل شيء، هناك أرض وتاريخ وذاكرة وهوية ولغة وأزمنة وحب وكره وموت وحياة وطفولة وشيخوخة ونساء وسماء ومطر وفصول أربعة وتين وزيتون وزعتر وأسماء ومفاهيم وتصورات وأحلام وقصص حب وحكايات شهداء ومزايا لمتضادات أجزاء الصورة ليحمل الشعر عنده تصوّرا جديدا للمفاهيم، مفاهيم لارتياد عالم من الكشوفات والإبداع وولوج عالم الممكن باندفاع واقعي، واستثمار الحلم بوصفه أحد المداخل المشروعة لتغيير الواقع المعترض عليه." [4]

كان الشاعر مبدعاً في شعره، لم يكن شاعراً. كان مبدعاً، استطاع أن يُدخل إلى شعره مكنونات شعرية جديدة اتصفت بالجرأة والثورة على الواقع، والأفضل من هذا وذاك، اتصافها بالقوة التي ساعدتها لتصل إلى الجماهير، وتحرّك فيهم مشاعر الثورة والنهوض، والمطالبة للحصول على المستقبل الأفضل، والسعي لتحقيق ذلك، وهذه المكنونات هي إكثاره من الرّمز والمجاز، والمعاني المكثفة الّتي تحمل في طياتها معانٍ كثيرة استطاعت أن تجعل القارئ منفتح العقل، ومتّسم بالدّقّة، والتّركيز.

"فشعر محمود درويش بين عامي 1964–1984م موزع على مراحل تاريخية ،هي :في المرحلة الأولى: التي نسميها مرحلة التحدي، والتي تمتد من الفترة التي عاشها محمود في الأرض المحتلة إلى خروج المقاومة من لبنان في أواسط الثمانينيات، وهي مرحلة تتميّز وطنيا وفكريا بالتماسك والتصاعد والجرأة البالغة والمحافظة نسبيا على النفوذ السياسي القوي لمنظمة التحرير الفلسطينية ،وخصوصاً في لبنان بعد تحويلها إلى الكفاح المسلح، هذه الفترة التي تستغرق مرحلة الفتوة والشباب لمحمود درويش هي التي صنع إنتاجه الشعري فيها شهرته الأساسية لشاعر يمثّل أولا

1 - المرجع السابق ، ص101 .

2 - المرجع السّابق، ص 102.

3- المرجع السابق،ص102 .

4 - سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش ، ص104.

طليعة تيار شعراء الأرض المحتلة" [1] الذين كانوا وما زالوا يدافعون بشعرهم عن الأرض كما يدافع الجنود عنها بالسلاح.

وهو "يمثل ثانيا طليعة الشعر المقاوم الذي برز فيه بعد تركه الأرض المحتلة إلى مصر فترة قصيرة في أواخر العهد الناصري،ثم إلى لبنان حيث غدا الممثل الأوّل لشعر المقاومة الفلسطينية ،وهذا ما يفسّر مثلا ظهور قصائد مثل(سجل أنا عربي) التي نشرت في مطلع الستينيات، وظهرت في ختام مجموعته الأولى(أوراق الزيتون) الصادرة عام 1964م" [2] والتي بيّنت حرص الشاعر على انتقاء مفرداته الثورية ومصطلحاته الوطنية الجديدة التي تعتز بالأرض والعرض والانتماء القومي.

" إذ نواجه شعرا عربيا جديدا بكل معنى الكلمة شكلا ومضمونا ومعبّرا في الوقت ذاته عن روح التحدي الجسور والاعتزاز بالهوية القومية والوطنية في مواجهة الاحتلال الاستيطاني بلغة في منتهى البساطة والمباشرة والوضوح، ومع ذلك فقد بدت قصيدة جديدة بسبب لغتها الطازجة جدا، وزوايا التصوير المبتكرة والتقنيات التعبيرية المستحدثة " [3] التي تدخل إلى النفس حاملة معها الحبّ والطمأنينة وعدم الخوف من المواجهة

"وهذه النكهة من الحداثة التي هبّت علينا من داخل الأرض المحتلة، فأنعشتنا وحتى في موضوعات الغزل الأكثر استهدافا وتداولا،وبالتالي صعوبة في الابتكار والتجديد والقلق، وسوف نفاجأ برائحة لطيفة لحداثة شعرية مقبولة لم نعهدها من قبل، تنعش وتحرّض ذائقتنا على تقبّل المزيد من طعوم الحداثة الوافدة." [4]

وهنا تظهر براعة الشاعر في طرح موضوعات قديمة بأسلوب جديد يتميّز بالدقة والقلق والحذر في اختيار مصطلحات فريدة خاصة وتصل إلى الجماهير بطريقة محببة واعية.

ولنأخذ أي شاهد من مجموعته الأولى التي نشعر معها على الفور بالنوعية الجديدة لهذا الغزل كما في (حنين إلى الضوء) مثلا:

"ماذا يثير الناس لو سرنا على ضوء النهار
وحملت عنك حقيبة اليد، والمظلة
وأخذت ثغرك عند زاوية الجدار
وقطفت قبلة.." [5]

فهو يستخدم الحب والغزل للتعبير عن أفكاره الثورية، ولتوصيل الفكرة إلى المتلقي بأسلوب محبب جميل." ثم يفاجئنا محمود درويش بقصائد جديدة تتميز بالوضوح الساطع، بل على العكس كانت أقرب إلى الغموض" [6] وهذا ما يسمى بالسهل الممتنع، السهل الصعب، الواضح والغامض في الآن نفسه كما في قصيدة (الرمادي) مثلا في مجموعته (محاولة رقم 7):

"الرمادي اعتراف والسماء الآن ترتد عن الشارع
والبحر ولا تدخل في شيء ولا تخرج من شيء ولا تعترفين

---

1 . المرجع السّابق، ص112.

2 . المرجع السّابق، ص112.

3 . سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش ، ص112.

4 - المرجع السّابق، ص 113 .

5- درويش، محمود، ديوان محمود درويش ،المجلد الأوّل،ط5، دار العودة، بيروت ، 1977م، ص119.

6 - سلوم،محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش ، ص 115.

ساعتي تسقط في الماء الرمادي فلم أذهب إلى موعدك الساطع
يأتي زمن آخر إذ تنتحرين.." [1]

هنا نجد تعقد الأمور بعضها مع بعضها الآخر، فلا نكاد نفهم للوهلة الأولى مقصد الشاعر،على الرّغم من كون المعنى السطحي واضحا، أما المعنى العميق المراد فهو غامض ويحتاج لبحث وتدقيق.

"لقد استطاع الشّاعر أن ينزاح بلغته عن المألوف، ويعدل بها عن المقصود المباشر، ويحمّلها توتراً (وقلقاً) بإسناده العلائقي بين تراكيبه وأبنيته، وحتى بين قصائده، ودواوينه." [2] لقد أعطى محمود درويش أشعاره عمقاً فلسفيّا مزجه بحالة قلقة مناسبة لوضع بلده القلق، فجاءت قصائده صورة صادقة، وفوتوكوبية عن مجتمعه الغريق (فلسطين).

"إنّ الشاعر محمود درويش استطاع بحنكة لغوية منه، وحكمة شعريّة أن يصوّر الوطن، ويرسمه منمنمة شعريّة ، أفرد جزئياتها ملوّنة، ومموّهة على لوحة تجربته الشّعريّة، وترك مهمّة الكشف عنها، ومن ثمّ تجميعهاونظمها للقارئ لتكتمل الصّورة الكليّة، وتحدث اللّذة." [3] فكانت هذه الرّؤيا الشّعريّة القلقة ممتعة لدى القارئ، ومؤثرة في حياة الأفراد، والأجيال اللّاحقة.

"فمن يتابع هذه القضية إلى نهايتها ،ويعيد التأمل في تفاصيلها يفهمها أخيرا، ولكن لابد من الاعتراف بأن الصعوبات تعترضه فيها ولم يكن يواجه مثلها في شعره قبل مجيئه إلى بيروت، لقد استطاعت هذه المدينة العربية الخارقة أن تفتح بصيرة محمود درويش على مراهنات لا مفر منها مسايرة لروح العصر" [4] وذلك لكي يجعل شعره من أجل الجماهير ولأجلهم.

"وامتياز محمود درويش أنه فهم اللعبة فورا، ونجح في هذه المراهنة تسعفه بداهته وموهبته وحركته الحرّة على الرّغم من التزامه، ولهذا السبب لم يبتعد محمود عن قرائه كثيرا ،بل كان يداعبهم بحداثته مقتربا ،مبتعداً عنهم، ولما شعر أنهم تحيّروا بعض الشيء وكادوا يضيقون به ذرعا فأسمعهم قصائد نادرة في مستواها الفنيّ الرفيع، وقدرتها على تطويع الذوق السائد على هضم النكهات المبتكرة للمطبخ الشعري المحدث، كما في (سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا) و(أحمد الزعتر).

في المرحلة التالية، وتعني مرحلة (الحنين) التي بدأت مع خروج المقاومة من لبنان، وتعرّضها لتشرد جديد إلى يوم توقيع اتفاقية أوسلو ،وعودة المنظمة إلى الداخل بموافقة العدو" [5] ازداد شعور القلق لدى الشاعر محمود درويش بسبب بسبب الوضع الصعب الذي كانت تمرّ به البلاد آنذاك، وبسبب مشاعر الألم والحزن التي كانت تنتاب الشاعر "ففي هذه الفترة الموجعة يظل محمود درويش قلقا وأمينا لأحوال شعبه ،فتتلاحق القصائد المعبرة عن أوجاع التشرد على شواطئ قبرص مثلا، وفي المطارات اليونانية وغيرها من أمكنة كانت تتلامح في إنتاجه مع شحنة أعمق من الحزن والحنين العميق إلى عودة شبه مستحيلة للوطن الأمّ." [6]

---

1 - درويش، محمود، ديوان محمود درويش ،المجلد الأوّل،ط1، دار العودة، بيروت ، 2010م، ص536.

2 - مراح، محمد، هندسة المعنى في الشّعر العربي المعاصر(محمود درويش أنموذجاً) ،إشراف: أ-د.عبد الوهاب ميراوي، كلية الآداب(قسم اللغة العربيّة)،جامعة وهران،الجزائر،2012-2013م، ص151.

3 - المرجع السّابق، ص151.

4- سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش، ص 115.

5- المرجع السّابق، ص115-116.

6 - المرجع السّابق، ص116.

لقد كانت هذه الفترة محمّلة بتناقضات كبيرة أحسّ بها الشاعر ممّا جعله يكثر من قصائد النثر وقصائد الحزن والأسى والقلق؛ لأنّ النثر يمكن للشّاعر من خلاله أن يعبّر عن الحالة النفسيّة الدّقيقة الّتي يعيشها."وفي الحقيقة ،إن قراءة حضور محمود درويش في تفاصيل المشهد الأدبي، وصعوده المنقطع النّظير تستدعي بالضرورة قراءة الشّروط التّاريخية الّتي أنتجته خاصة خارج الوطن." [1]

"ومن الملاحظ أن محمود درويش يروّض النثر في كتاباته ،(ففي كتاب يوميات الحزن العادي تطالعنا محاولات محمود درويش الأولى في ترويض النثر، فمقالات هذا الكتاب تعود إلى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات وليس لنا أن نتوقع أن تكون طريقة درويش المبتكرة في الإبداع بالنثر قد تبلورت منذ الوهلة الأولى." [2] ويمكننا أن نقول: إنّ انتقاله من الشعر إلى النثر يدلّ على قلقه الوجودي الذّي لم يتمكّن من إخفائه في لغته وأسلوبه وتراكيبه.

"ففي هذا الكتاب تتغلب الثقافة وتسود الأفكار وتعمم المفاهيم أمّا اللغة والأسلوب، فتظلّ عند المستوى الذي ننتظره من شاعر كبير ينثر، إن طريقة محمود في التعامل مع النثر لا تزال هنا في تجاربها الأولى تظهر بعض سماتها على استحياء لكي تختفي تحت ضغط الفكرة وإغراء الجدل، والحجاج العقلي، وتبقى فائدة الكتابة محصورة أو تكاد في رصد آراء الشاعر المباشرة في القضية الفلسطينية الأم وما يتفرع عنها من قضايا فرعية على المستويات السياسية والفكرية والأدبية كافّة." [3]

فقد كانت طريقة محمود درويش في النثر تؤدي غرضها في نقل أفكاره وآرائه المقترحة تجاه الوضع الراهن في تلك الفترة، فكانت تجربته الشعرية مبتكرة وهادفة وقلقة في الوقت ذاته.

"وفي كتاب(وداعا أيتها الحرب، وداعا أيها السلام)النثري يعيش القارئ أجواء حرب أكتوبر 1973وما بعدها، بعد أن عاش في الكتاب السابق أجواء هزيمة يونيه1967م،غير أن هذا الجو الذي تغير من هزيمة كبرى صادقة إلى نصر غير مكتمل ليس هو بيت القصيد هنا، هو نثر محمود درويش الذي بدأ يقيم لنفسه معالم هوية جديدة تقف به على الحدود بين الشعر والنثر، بل إن هذه الحدود تكاد تمحى أمام بكارة الصور وسعة الخيال، ومرونة اللغة، منذ بداية الكتاب تطالعنا صورة (سرحان) رمز الأسير السجين الذي يرسم بما تبقى له من أ ظافر خيوطا صاعدة هابطة على جدران الزنزانة، وحين نرى هذه الصور تطالعنا من جديد في الخطوط الصاعدة الهابطة التي ترسمها نسمة تهب هونا على وجه الماء، وتطالعنا مرة ثالثة في الخطوط الصاعدة الهابطة نفسها وقد نقشتها هذه المرة أدوات التعذيب الوحشية على جسد الأسير السجين، وحين تتواتر الصور على هذا النحو المكثف سنشعر بالتأكيد أن تلك الخطوط ليست على جسد الأسير الضحية، وإنما هي أصبحت بجرة قلم محفورة في وجداننا، موشومة على جلودنا الحيّة." [4] ومن خلال هذا هذا الأسلوب يمكننا أن نكتشف مقدار القلق الصاعد في نفسية محمود درويش، وبالتالي تحوله اللاإرادي إلى كتابة النثر، واستنباطه لصور ومعان مؤثرة إلى حد كبير على القارئ والكاتب على حد سواء.

"ونحن حين نقرأ شيئا من اعترافات سرحان في هذا الكتاب نستطيع أن نفلت من حالة الدوار الخفيف التي تهزنا بعد سماع قصيدة عظيمة." [5]

---

1 - أشقر، أحمد، التّوراتيات في شعر محمود درويش من المقاومة إلى التّسوية، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق،ط1، 2005م، ص9.

2 - سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش، ص 115.

3 - المرجع السّابق ، ص123.

4- المرجع السّابق، ، ص124.

5- سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش ، ص124.

إنّ هذه الأسطر تدلّ على حالة القلق، والألم الّتي تعتصر في نفس سرحان، فهو يريد التّحرّر والانعتاق من دمه الحالي، لتعيش الأرض وتحيا وتبقى.

"ويمكن القول: إنّ الحيرة عند درويش في الواقع المر، جعلته مرتبكاً في الاختيار بين أمرين، فسرحان من جهة يائس وضائع،حالته تصلّ حدّ العدم، ومن جهة ثانية يرفض محمود درويش إعطاء سرحان صفة التّشرّد أو الموت، إنّه ثائرٌ مفعم بالحيويّة والحريّة ينطلق لإبادة الغزاة:" [1]

"ولست شريداً.. ولست شهيداً

وسرحان يشرب قهوته ويضيع" [2]

فهذا التّناقض في رسم الصّورة الشّعريّة يعبّر عن قلق درويش وتشتته بين الموت والحياة، الضّياع والوجود، الهزيمة والانتصار. "وهذا الضّياع حاصل من الغربة النّفي الّتي يعانيها درويش الفلسطيني." [3]

ولا يمكن أن تبدّد هذه الغربة إلّا بالعودة إلى أحضان الحبيبة- الأرض، والعناق بين الشّاعر وبينها لأنّها لّه وهذا لا يتمّ إلّا موتاً، من هنا تساؤل درويش الحائر كيف يعانق الحبيبة- الأرض ويبقى على قيد الحياة، والأرض هي لدرويش: [4]

"كيف أعانق ظلّي

وأبقى" [5]

عندما أحبّ محمود درويش لم يكن حبّه حبّاً عاديًّا ،ولم يكن عشقاً طبيعيّاً، لقد كان حبّه مرتبطاً بحبّ الوطن، فلو كانت المرأة هي طموحه لما كتب هذه الأشعار الممزوجة برائحة تراب الوطن والأرض.

"وعلى الرّغم من إصرار سرحان على تأكيد حضوره، يضيع درويش عبره، لأنّ نداءه غير مسموع، وهو مكبّل وها هو الآن يبكي ويستغيث ولا أحد يسمع، وهنا تبرز مأساة درويش، فسرحان متروك، ومعاقب:" [6]"

وسرحان يبكي بلا ثمن، ولا وسام ويشرب قهوته ويضيع" [7]

"ومرارة المأساة عند الشّاعر تتجلّى مع إحساسه بأنّ فلسطين تضيع، وبأنّ خسارة الصّديق تعوّض بصديق آخر، ولكنّ الوطن لا يستعاض عنه بآخر." [8]

لقد كان عالم محمود درويش عالماً أسمى من هذا العالم الطّبيعي، فقد جاءت أشعاره بوصفها تعبيراً نفسيّاً عمّا يدور في أعماقه، وخلجات قلبه من مشاعر، وأحاسيس مرتبطة بأرضه، وأهله ،وعالمه الدّاخلي الّذي ولّد عنده عالماً خاصّاً وعامّاً في الوقت نفسه."لقد أدرك سرحان كلّ شيء، ولكنّ وطنه لم يعد ملك يمينه، وهنا نتذكّر قول الشّاعر الفرنسي

1- مغنية، أحمد محمود جواد، الغربة في شعر محمود درويش(1972-1982م)أو فترة الإقامة في بيروت ، دار الفارابي ،بيروت،ط1، 2004 م.،ص54-55.

2 - درويش، محمود، ديوان محمود درويش ،المجلد الأوّل،ط9، دار العودة، بيروت،1981م، ص450-451.

3 - سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش ، ص 124.

4 - خوري، إلياس، دراسات في نقد الشّعر ،ط2، دار ابن رشد، بيروت ، 1981م، ص137 .

5 - درويش، محمود، ديوان محمود درويش ،المجلد الأوّل، ص451

6 - مغنية، أحمد محمود جواد، الغربة في شعر محمود درويش(1972-1982م) أو فترة الإقامة في بيروت ،ص56.

7 - درويش، محمود، ديوان محمود درويش ،المجلد الأوّل، ص453 .

8- مغنية، أحمد محمود جواد، الغربة في شعر محمود درويش(1972-1982م)أو فترة الإقامة في بيروت، ص56 .

(Pierre Emanuel): من خسر أصدقاءه يستطيع أن يجد أصدقاء آخرين ولكن من خسر وطنه لا يستطيع أن يجد وطناً آخر آه أين أنت يا وطني؟" [1]

"قابل من شئت من الشعراء في هذا الكتاب من (أدونيس) إلى (برواد)، واقرأ فيه ما شئت عن تحالف الطغاة مع الغزاة، وعن الحرية الزائفة التي تدعيها أمريكا شعارا لها أو ترتديها قناعا، وعن حرب أكتوبر1973م التي كسرت غرور إسرائيل، وهزّت ثقتها في نفسها حتّى وإن لم تحقّق للعرب النصر الكامل المنشود، ولكنّ الأهمّ هنا هو الأسلوب الجديد الذي طوّره محمود درويش وعبّده طريقا جديدة في الكتابة النثرية." [2] وكانت هذه الكتابة فريدة من نوعها لتقولبها في إطار جديد استطاع الشّاعر محمود درويش أن يصوغ معالمها الأولى وينمّي مفرداتها شيئاً فشيئاً.

"إنها كتابة تتماهى مع الشعر أحيانا وتتغلب عليه أحيانا ،وتخرج عنه أحيانا ،لكنها في سائر الأحيان تعلن عن نفسها عروسا رشيقة تغار منها عرائس الشعر وتغبطها وهنا نرى لوحات شعرية مفعمة لا يملك المرء إلا أن يطعن في شرعية انتسابها إلى النثر الذي عرفناه، وألفناه، مثل اللوحة التي أُبّن فيها الشهيد (غسان كنفاني) أو اللوحة التي أُبّن بها الشهيد (كمال ناصر)واختتمها بقوله:

(ما أجملنا شهداء وما أقبحنا لاجئين) " [3] فهو يفضّل الشّهادة دفاعا عن الأرض على اللّجوء إلى بلاد غريبة عنّا.

"واللوحات الفاتنة الباهرة كثيرة بطول الكتاب وعرضه، إنها طريقة محمود درويش الجديدة في تمويه النثر بما يشبه الشعر." [4] وهذه الطّريقة تجعل القارئ مستمتعاً في القراءة متلهّفاً لاكتشاف ما يودّ الشّاعر أن يوصله إلى المتلقّي. "أمّا "أمّا الكتاب الثالث (ذاكرة للنسيان) فهو الأقنوم الأسمى، إن طريقة محمود درويش التي تبلورت في الكتاب الثاني نمت ونضجت، فأصبحت صافية تخلب الألباب، كلّ شيء موّظف ليجلو هذه البلورة ويجعلها تشع في كل اتجاه ،فمن التّناص مع الكتب المقدسة إلى التّناص مع التراث الشعري والنثري، مثلا (الكامل في التاريخ)لابن الأثير، و(البداية والنهاية) لابن كثير، إلى التّناص مع تراث الشاعر نفسه منذ (سجّل أنا عربي) إلى قصيدة (بيروت)، النصوص كلها مألوفة لصالح هذه البلورة الصافية، النثر يخدمها والشعر يسهر عليها، وينازع ليستأثر بنسبتها إلى نفسه، وليت المقام يتسع لنماذج من الصفحات الفاتنة التي توحّد فيها سحر اللغة بالخيال الفينومينولوجي الطليق خاصة ما كتبه محمود درويش عن القهوة والماء." [5]

"لقد خدعنا محمود درويش برأيه المعلن في قصيدة النثر حين أعلن أنه ضدها ولكنه يخشى المافيا من أتباعها، فإذا به يقدّم لهذه المافيا أجلّ خدمة، وأعم معونة، ففي ذاكرة للنسيان من الكنوز الشعرية ممّا لا نكاد نجده في دواوين شعراء النثر كافّة." [6]

لقد كان الشّاعر يبتكر في شعره لدرجة يحسّ معها القارئ أنّه أمام لوحة فنيّة دقيقة في معانيها، واسعة في التّعبير عن هذه المعاني، إنّها طريقة قلقة متوترة خارجة عن المألوف في مضامينها، ممنهجة في أدقّ تفاصيلها، تحمل في طيّاتها قلق الشّاعر، وعدم استقراره في حياته المرتقبة.

1- حسن، عبد الكريم، قضيّة الأرض في شعر محمود درويش ،(د.ط)، (د.د)، دمشق، 1975 م، ص137-138.

2 - سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش ، ص125 .

3 - المرجع السّابق، ص125-126 .

4 - المرجع السّابق، ص126.

5 - المرجع السّابق. ص 126-127 .

6 - سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش ، ص127.

"وقد فاجأنا هذا الشاعر الطالع توّا من فوهة الثورة، مع أنّ ساحة الشّعر كانت ملأى بشعراء الحداثة البارزين، ولكن محمود درويش كان وكأنه يكتب بلغة جديدة غير لغتهم، أو غير لغتنا." [1] لقد كان يكتب بلغة الشّاعر الجديد في أفكاره، والحديث في نقل معاناته وقلقه، أراد أن يجعل القارئ ضائعاً في أسلوبه، باحثاً عن مكنونات نفسه، سابحاً في طريقة تفكيره.

"خرج محمود درويش للعالم العربي من سجون مضاعفة عن سجن الاحتلال، وقيود الإقامة الإجبارية التي تستهلك معظم نهاره لإثبات وجوده، إلى المجتمع العربي الواسع، المقيد بألف قيد غير مرئي." [2] فقد أراد من رؤيته الشّعريّة الجديدة أن ينعتق من القيود المتربصة به، هنا فقط يستطيع أن يتحرّر من كلّ شيء، يستطيع أن يكتب بحريّة، وبأسلوب هو وحده الّذي يحدّد حدوده ،وأعرافه، وتقاليده. "لا مراء في القول: إنّ محمود درويش أضحى منذ نهاية سبعينيات القرن العشرين (ظاهرة شعرية) ملفتة، تكاد تختزل في ذاتها عند كثير من الفلسطينين، والعرب، وربما في العالم أيضا، التّجربة الشّعريّة الفلسطينيّة في عمومها!.. ظاهرة يصعب تغافلها أو نكرانها." [3]

خاتمة:

"وأخيرا لا شكّ أن المرور السريع على تجربة محمود درويش الشعرية بين عامي 1964-1984تعني الكثير من العناء للمارّ بجوارها، فإضافة إلى عمرها التّاريخي الطويل، هناك اختلاف التجارب الشّعورية، هناك تغاير قواعد التجوهر للمفاعيل الدلالية للتّجارب ذاتها، التي منحتها كثافات ترميزية، هناك تطور اللغة والتوزيع الموسيقي، والخطابات الاستعارية، هناك التدميج النثري مع الشعري، هناك أيضا الوقائع الخطابية، وفوق كل تلك الأشياء هناك الأحاسيس القلقة، تلك الكائنات الجميلة التي لا تكبر إلا في ضوء القلب." [4]

وقد كانت حركة الرّؤيا الشّعريّة القلقة صاعدة في حركتها من الأضعف إلى الأشدّ، والأقوى، وقد أثّرت في بنية اللّغة الفنيّة من ناحيتي الشّكل والمضمون، ومن ناحيتي اللّفظ والمعنى.

لقد كان محمود درويش شاعر القضية والأرض والعرض،"هذه القضية التي أخذت منه كلّ تفاصيل حياته، وساعات أيامه، حتى فراشه الذي ظلّ بارداً دون شريك، لم تغب عنه القضية، فحين كان يمكث فيه بفعل مرض أو إرهاق، حيثما كان في بقعة من بقاع العالم، كانت كلّ أحاديثه تدور حول هذه القضية، وما يرتبط فيها وما يرجوه لها، كأي مواطن عربي نقل معاناته من خلال قصائده." [5]

فقد كان أكثر من شاعر القضية، كان شاعر الحبّ والغزل والأمل بمستقبل جديد، على الرّغم من قلقه الّذي استخدمه للتّطهير بالمعنى الدّقيق للكلمة، كان قلقه تطهيراً من القلق، تطهيراً من الألم.. وهنا مصدر الجدّة في شعره.

1 - المرجع السّابق، ص 136.

2- المرجع السّابق ،ص136.

3 - أشقر، أحمد، التّوراتيات في شعر محمود درويش من المقاومة إلى التّسوية، ص7 .

4 - سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش، ص108-109.

5 - درويش، محمود، روائع محمود درويش،ط1، دار الخلود للتّراث، القاهرة ، 2008م، ص7.

المصادر والمراجع:

1-إبراهيم، إسلام ،أشعار محمود درويش،(د.ط)، فاروس للنشر والتوزيع، القاهرة،(د.ط)،(د.ت).

2-*إسماعيل، عز الدّين، الشعر في إطار العصر الثوري*ط1، ، دار القلم، بيروت ، 1974م.

3-أشقر، أحمد، التّوراتيات في شعر محمود درويش من المقاومة إلى التّسوية،ط1، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، 2005م.

4-حسن، عبد الكريم، قضيّة الأرض في شعر محمود درويش،(د.ط) ،(د.د)، دمشق،1975 م.

5-خوري، إلياس، دراسات في نقد الشّعر، ط2 ،دار ابن رشد، بيروت، 1981 م.

6-درويش ،محمود، الأعمال الكاملة للشاعر محمود درويش، *ديوان أوراق الزيتون* ،ط10، دار العودة، بيروت، ج1، 1983م.

7-درويش، محمود، ديوان آخر اللّيل، ط13، دار العودة، بيروت، 1993م.

8-درويش، محمود، ديوان محمود درويش ،المجلد الأوّل،ط5،دار العودة، بيروت، 1977م.

9-درويش، محمود، ديوان محمود درويش،ط9،المجلد الأوّل، دار العودة، بيروت، 1981م.

10-درويش، محمود، روائع محمود درويش، ط1، دار الخلود للتّراث، القاهرة، 2008م.

11-درويش، محمود، ديوان محمود درويش،ط1،المجلد الأوّل، دار العودة، بيروت ، 2010م.

12-دكروب، محمد، الأدب الجديد والثورة، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1980م.

13-*سعيد، خالدة، حركية الإبداع*، ط2، دار العودة، بيروت ، 1984 م.

14-سلوم، محمد الزينو، قراءات نقدية في روائع الشّاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش،(د.ط)، دار الرّضوان، حلب،2008 م.

15-*صالح، إبراهيم الحاج، محمود درويش بين الزعتر والصبار*، ط1، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1999م.

16-مغنية، أحمد محمود جواد، الغربة في شعر محمود درويش(1972-1982م)أو فترة الإقامة في بيروت،ط1،دار الفارابي ،بيروت، 2004 م.

17-النقاش، رجاء، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ط2 ،دار الهلال، مصر ، 1969م.

18-هلال، محمد غنيمي، ما الأدب ؟ لجان بول سارتر،(د.ط)، دار العودة، بيروت، 1984 م.

رسائل الماجستير:

1-عطافن، خيرة- قصور، حسيبة، قضية الالتزام في شعر محمود درويش ،إشراف الدّكتورة: ليلى مهدان، كلية الآداب قسم اللغة العربية، جامعة الجيلاني،الجزائر،2015-2016 م.

2- مراح، محمد، هندسة المعنى في الشّعر العربي المعاصر(محمود درويش أنموذجاً)،إشراف: أ- د. عبد الوهاب ميراوي، كلية الآداب(قسم اللغة العربيّة)، جامعة وهران، الجزائر، 2012-2013م.